جدليات حول مدى إثبات وجود إله فيزيائيًا

د. سامر مظهر قنطقجي

هل يمكن للفيزياء إثبات وجود إله؟ سؤال طرحته عالمة الفيزياء (مونيكا غرادي) أستاذة علوم الفضاء والكواكب في الجامعة المفتوحة في بريطانيا، ونشرته صفحة BBC News البريطانية؛ بتاريخ ٩ مارس/ آذار ٢٠٢١ (للاطلاع روابط النص العربي والإنكليزي)[1].

حُق لهذه العالمة وغيرها أن تطرح السؤال الذي تريده ما دامت ترغب بسبر الحقيقة، وحَقٌ علينا أن نجيب بطريقة علمية كما طلبت، وحَقٌ عليها أن تسمع جوابنا إن كان موضوعيًا، فالعلم يجعلنا نصغي للحقائق.

لقد طلبت هذه العالمة إثبات ما يتردد في مخيلتها وعقلها أو نفيه بطريقة علمية لا إيمانية عقائدية، وهذا طلب حق؛ فقد تأرجح حالها بين الإيمان والإلحاد كما ذكرت؛ وهذا التأرجح لا يكون إلا لاضطراب في رسم الصورة الكاملة، وسنحاول رسم تلك الصورة إجلاء لمن طلب الحقيقة وآمن بها.

لقد تكرر هذا السؤال، وأجاب عنه فقهاء وعلماء مسلمون رداً على شبهاته وإشكالياته، كما أن هناك علماء فيزياء مسلمون وقعوا في الإشكالية نفسها؛ ثم وصلوا للحقيقة بطريقتهم، ساعدهم في ذلك خلفيتهم الإسلامية وإجادتهم للغة العربية وهذا حال البروفيسور العراقي الفيزيائي (محمد باسل الطائي) – انظر الفيديو –.

وعلى الرغم من ابتعاد تخصصي العلمي عن الفيزياء التي عرفتها خلال دراستي للثانوية العامة وما قبلها، إلا أن المقال أثار عندي أفكاراً رغبت أن تكون أجوبة لجدليات أثارتها (غرادي)؛ وسترتكز إجاباتي على منهجية البحث العلمي؛ فالسائلة تمتهن العلم سبيلاً، وغلطها المنهجي قادها لتلك الجدليات التي سنجيب عليها تباعًا.

---

[1] BBC NEWS: Source article: Monica Grady, Can physics prove if God exists?, The Open University, 2nd March 2021, LIFE'S BIG QUESTIONS | PHYSICS
Arabic version: https://www.bbc.com/arabic/vert-fut-56326887.
English version: https://www.bbc.com/future/article/20210301-how-physics-could-prove-god-exists

جدلية – ١ :

الأحداث المأساوية كالأوبئة، غالبا ما تدفعنا للتساؤل عن مسألة وجود إله؛ فإذا كان هناك إله رحيم، فما السبب يا ترى في حدوث كارثة كهذه؟

هو رحيم حقًا، لأنه أرسل للناس تحذيراً قبل وقوع الخطر الأكبر؛ وهو العاقبة النهائية حيث نار جهنم لمن كفر به ولم يؤمن، لذلك انظرِ فلولا هذا الفيروس لما جلست في بيتك محجوزة ولا فكرت بما فكرت به لأنك كنت مشغولة عن التفكير بما يجب عليك التفكير به، وهو الإيمان بوجود إله.

لقد حذر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كل إنسان: **(اتق النار ولو بشق تمرة)**، والإتقاء تحوط، وشِق التمرة هو أقل تكلفة يمكن تحملها لدفع خطر أكبر يتجلى في دخول غير المؤمن بالله تعالى نار جهنم، والفارق كبير بين ألم دنيوي محمول وألم أبدي عظيم.

جدلية – ٢ :

إذا لم يكن الإله قادرا على كسر قوانين الفيزياء؛ ربما يدفعنا ذلك للقول، إنه ليس بالقوة التي يُتوقع من كائن أسمى وأعلى أن يكون عليها. أما إذا كان بمقدوره تجاوز هذه القوانين؛ فلماذا لم نشهد في الكون من قبل أي دليل يثبت حدوث كسر لأيٍ من قوانين الفيزياء؟

هذا استنتاج صحيح، لكن القراءة قاصرة، فقد شهد الكون أدلة كثيرة على كسر قوانين الفيزياء، من ذلك:

هل من الضروري أن يشهد إنسان لا يتجاوز عمره ال ١٠٠ عام أحداثًا كونية لا يعلم مدة وجوده إلا من خلقه؟ وقد اختلفت التقديرات حول عمره بتباين شاسع ليس له تفسير إلا الخطأ في التقدير لضعف المعلومات – وسنتابع هذه الفكرة بعد قليل –.

إنه لا يصح طرح تساؤل عن مدى تقيد الخالق بالقوانين التي وضعها هو نفسه؟ فإذا سلمنا أنه الخالق والصانع فكيف لا يستطيع؟ هذا هراء علمي.

خلق الله تعالى الكون وخلق الإنسان لعبادته وأوجد لهم القوانين والنواميس التي يتحركون على أساسها؛ فالشمس تعمل بقوانين تخصها لا تغادرها مطلقًا إلا إن أراد الله ذلك؛ وأمثلة ذلك:

السكين قانونها الذبح، لكن الله تعالى أبطل هذه الوظيفة مع نبي الله إبراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام.

النار قانونها الحرق لكن الله أبطل هذه الوظيفة مع إبراهيم عليه السلام عندما أراد قومه حرقه لأنه اتخذ إلها غير آلهتهم.

وكذلك أبطل الله تعالى قانون الحَمل مع مريم الصديقة عليها السلام فخلق عيسى عليه السلام من دون أب، كما خلق من قبله آدم من دون أب ولا أم، وخلق حواء من دون أم، لتكون نماذج فريدة تمثل أجوبة لمثل تلك التساؤلات ولغيرها.

إنها خوارق لسنن الله تعالى في خلقه، فهو يفعل ما يريد ولا يُسأل عن ذلك. لذلك بمقدور الله تعالى إبطال مفعول قوانينه.

جدلية – ٣:

حتى الآن على الأقل، لم نرصد وجود أي شيء قادر على الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء. ولا يشير ذلك في حد ذاته، إلى أي أمر يتعلق بوجود إله من عدمه، بل يؤكد فقط ما نعرفه بأن الضوء يتحرك بسرعة فائقة بالفعل.

إن مرد هذا الفرض القاصر هو اعتبار المنهج التجريبي وحده دون المنهج العقلي، على اعتبار أن الحواس تقود العقل، وهذا لا يصلح في جميع الحالات، ولو أن السائلة زادت اطلاعها لأعطاتنا رأيًا مغايرًا، وفي هذا الميدان فإن الخبر الصادق من الله تعالى حقيقةٌ مسلمٌ بها عند المسلمين، ولا فرق في القول بأنه لم يخبرنا أحد حتى الآن بوجود أي شيء قادر على الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء، فهذا مدخل استقرائي استند إلى المنهج التجريبي، ومعناه أن التتبع للتاريخ يُنبئ أن لا أحد أخبر بتلك المعلومة؛ فكان استقراءً وقراءة لمن سبق أن قدم أخباراً.

أما الأخبار المذكورة في القرآن الكريم وفي أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى والتحيز وقد قال عنه الله تعالى: (**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**) فهي حقائق مؤكدة.

تلك الحقائق تتوزع إلى ثلاثة أنواع وجميعها بدرجة يقينية:

١– حقيقة أدركتها حاسة الرؤية بالعين، سماها القرآن عين اليقين.

٢– حقيقة أدركتها حاسة السمع بالأذن، سماها القرآن علم اليقين.

٣– حقيقة أدركتها الحواس جميعها وأدركها العقل أيضا، سماها القرآن حق اليقين.

وكنت قد نشرت مقالا عنوانه: (إدارة المخاطر بين الشك واليقين في كتاب الله تعالى)، أوضحت أن الدليل المبني يختلف باختلاف درجات التأكد اختلافًا كبيراً في التدرج بين الحقيقية العلمية نزولا إلى الظن كأداة علمية، وصولا إلى درجات الشك والوهم التي تبعد العلم عن الحقائق.

ومثال ذلك وارد في الجدلية التالية:

جدلية – ٤ :

تبدي المعلومات الخاصة بحالة الدوران المغزلي تنتقل بين الجسيمين بشكل فوري. ويبدو أن مثل هذا الانتقال لتلك المعلومات الكمية، يحدث بسرعة تفوق سرعة الضوء.

إن كلمة يبدو تجعل الحقيقة قاصرة على الرؤية وليس المقصود بالرؤية المشاهدة بالعين بل الرؤية التصورية المرسومة في العقل المستنبط، وهنا تقع السائلة في فخ الشرط الذي وضعته لنفسها، بأن من أراد أن يحاورها فبالتجربة المحسوسة بعيداً عن الايمانيات وذلك لأن مصدرها الاستنباط العقلي.

وبالعودة إلى جدلية تحديد عمر الكون السابقة، ننتقل إلى الجدلية التالية لأنها ذات علاقة:

جدلية – ٥ :

إذا كان هناك إله؛ فسيطرح ذلك سؤالا عما إذا كان سيتقيد بالقوانين والقواعد العلمية، كقوانين الفيزياء أم لا لكن الأمر يصبح أكثر إثارة، عندما نفكر في المسافة التي قطعها الضوء منذ ميلاد الكون، أو بالأحرى منذ أن وُجِدَ الكون الذي يمكننا إدراكه، قبل ١٣.٨ مليار سنة. فوفقا للنظرية التقليدية التي تتحدث عن أن الكون نشأ نتيجة حدوث ما يُعرف بالانفجار العظيم، وبافتراض أن الضوء يتحرك بسرعة ١٨٦ مليون ميل في الثانية الواحدة، يمكننا القول: إن الضوء قطع منذ ذلك الحين، مسافة قدرها ١٣ وأمامها ٢٢ صفرا من الكيلومترات.

...

إذا كان الكون يتمدد بمعدل يصل إلى ٧٠ كيلومترا في الثانية لكل مليون فرسخ فلكي، ما يعني أن المسافة إلى حافة الكون تبلغ بالتقديرات الحالية ٤٦ مليون سنة ضوئية، وبناء على أن حجم الفضاء يزداد بمرور الوقت، يعني كل ذلك، أنه بات يتعين على الضوء الآن، الانتقال لمسافة أطول للوصول إلينا.

حقًا هذه معلومات وصل إليها العلم حديثًا، لكن التعامل مع كلام الله تعالى بوصفه الخبر الصادق قد أوصلنا إلى الحقائق ذاتها، فقد أخبرنا أن الكون يتوسع: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)؟ وكذلك كان قوله: (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)؟

ولا مانع أن يضع العلماء ما شاءوا من الفروض ثم يسعون إلى إثباتها، لكن ورود أخبار تفيد بأنها حقائق أمر مفيد وموفر للوقت وللجهد، ولا مانع من السعي لإثبات مدى صحتها؛ بينما كان موقف المسلم المؤمن هو التسليم بكلام الله تعالى بوصفه الخالق المدبر، وهذا ما يُسمى بالإيمان، ثم لا حرج أن يسعى من أراد التثبت أن يفعل ذلك.

لقد ساق لنا القرآن الكريم قصة (الخضر) مع نبي الله (موسى) عليهما السلام بثلاثة قصص ليتعلم الناس حركة القدر، وكيف يُسخّر الله من يختارهم لأداء بعض المهمات الاستثنائية. وكان الله في غنى عن ذلك، لكنه مدخل علمي يُسهّل على أصحاب المنهج التجريبي البناء عليه لفهم المنهج العقلي بدليل، وهذا من لطف الله تعالى وحكمته ورأفته بالإنسان.

جدلية – ٦:

إن من بين الأمور المزعجة لعلماء الكونيات، حقيقة أن كوننا يبدو وكأنه أُعدّ بدقة بالغة لكي توجد فيه الحياة بصورتها الحالية.

حقًا هذا كلام ممتاز، وهو فعلا مزعج إن بقي الإنسان وخاصة العالِم منكرًا لوجود مدبر حكيم لكل ذلك، فالعاقل لا يقبل أبدًا أن يرى كل شيء منظم بدقة دون أن يكون هناك فاعل قد نظّم ودقّق، بينما المسلم المؤمن مهما بلغ علمه تراه لا ينزعج؛ لأنه يعلم يقينًا أن الله تعالى هو الخالق وهو المصوّر وهو أحسن الخالقين.

مثال ذلك أن الله ذكر لنا مراحل خلق الإنسان من ١٤٤٢ عامًا، وأنه كائن مُكرم وليس كائنًا منحطًا؛ كما فعل داروين بنظرية التطور التي أطلقها وآمن بها كثيرون ثم ثبت لهم سخافتها وقلة حيلة داروين ومن ذهب مذهبه، قال الله تعالى: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

جدلية – ٧ :

هل يمكن لفيزياء الكم أن تساعد على تفسير فكرة وجود إله يستطيع أن يصبح في مكانينْ في آن واحد ؟

سؤال كئيب جداً، فالإله الخالق موجود في كل مكان، ولا يجب طرح هكذا سؤال ممن امتهن العلم الرفيع.

وعلى كل حال، هذا يسوقنا للجدلية التالية مباشرة لارتباطها بها :

جدلية – ٨ :

هل يمكن للإله التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء، التي تبلغ ١٨٦ مليون ميل في الثانية (٢٢٩٥٠٠ كيلومتر في الثانية) ؟ لعلنا نذكر أننا نتعلم في مدارسنا، أنه لا يوجد ما يمكنه الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء، وهو ما ينطبق حتى على المركبة الفضائية، التي تظهر ضمن أحداث فيلم (ستار تريك)، باسم (يو إس إس إنتربرايز)، وهي سفينة فضاء تعجز عن القيام بعمل من هذا القبيل.

إن الكلام عن سرعة الضوء يستلزم معرفة المسافة والزمن، وأعتقد أن قياس المسافة لا يمكن أن يكون بمنهج تجريبي فلا أحد قام بأخذ مسطرة أو ما شابهها وقاس المسافة من الأرض حتى حافة الشمس التي هي مصدر الضوء، بل كان ذلك بمنهج استنباطي بحت.

ويلاحظ أن السائلة قد أغلقت على نفسها باباً عظيماً من أبواب المعرفة عندما استندت إلى ما ظنت أنه حقيقة مُسلّمة؛ بأن المدارس علمتها قاعدة لا يمكن تجاوزها.

بينما المسلمون يقولون : إن الله علمنا، وقد ذكر القرآن ذلك أكثر من مرة بأكثر من طريقة، فقال الله تعالى : (**وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**)، وقال عن صناعة نبي الله نوح عليه السلام للسفن : (**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**) وقال أيضا : (**فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**)، وكذلك علم نبيه داوود عليه السلام القضاء، وعلمه صناعة السلاح، وكذلك علم قابيل ابن نبي الله آدم عليه السلام كيف يدفن أخيه هابيل بعد أن قتله، وكيف يواريه التراب من خلال التجربة؛ بأن أرسل له غراباً يفعل ذلك أمامه، قال تعالى : (**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**)، والأمثلة كثيرة وكثيرة.

لذلك يقف المنهج التجريبي عاجزاً عن كونه الأداة الوحيدة للإثبات، ولابد من المنهج الاستنباطي.

إن المنهج العقلي هو ذاته الذي يشكل الأساس للتعرف إلى خالق هذا الكون المتكامل المنسجم في كل جزئياته والذي لا يمكن أن يكون صدفة ولا يمكن أن يكون قد تطور تطورا طبيعيا ذاتياً. فالدقة المطلقة الموجودة في أصغر الأشياء وأعظمها، لا يستسيغ العقل الصحيح أن ذلك محض صدفة، وقد سجلت السائلة ذلك عندما قالت في جدلية سابقة: (حقيقة أن كوننا يبدو وكأنه أُعدّ بدقة بالغة لكي توجد فيه الحياة بصورتها الحالية) وقد اعتبرتها حقيقة!

إن أي اختراع استلزم تعاون الفكر البشري عقلياً وتجريبياً لسنوات عديدة حتى استقر على حاله، ونتذكر أول تجربة طيران قام بها عباس بن فرناس؛ دفع حياته ثمنا لها؛ بينما نعيش اليوم في طيران آمن ومريح وأقل خطراً؛ فكيف بمن خلق كل شيء وأحسن خلقه على تمامه؟

إن الزمن مخلوق من مخلوقات الله شأنه شأن الجبال والسماء والأرض والشجر والحجر والإنسان ... الخ، وقد جعل الله الشمس والقمر أدلة لتمييز الأزمنة؛ فالقمر يميز الأشهر، والشمس تميز الأيام، أما عدد الشهور في السنة فهي إثنا عشر شهراً لقوله تعالى: (**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا**).

ولفهم الزمن، نستذكر المنام والرؤية التي يراها النائم، فأغلب الدراسات أوضحت أن أطول منام لا يتعدى الدقيقة تقريباً. فكيف يرى النائم الألوان والأشكال والأجسام ويتحرك لمسافات شاسعة بل ويشعر ويتفاعل وكأن أزمنة وأمكنة تحكم كل ذلك، ولربما رأى أناساً أمواتاً أو أحياءً يعرفهم أو لا يعرفهم. واستدل الشيخ الشعراوي بذلك أن انفصال الجسد عن الروح مؤداه توقف الزمن، فالنوم مرحلة من مراحل الموت لقوله تعالى: (**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)؛ أي أن في الموت توقف للزمن لانفصال الروح عن الجسد، إذن الزمن لازم للحياة الدنيا وللعيش فيها كما هو حال الهواء والماء، وقد خلقه الله تعالى لتمييز حركة الشمس والقمر دلالة على تلك الحركة ولمعرفة الحساب الدقيق.

وبالعودة إلى سرعة الضوء؛ فلا يمكن تغافل قانون السرعة حيث لابد من مسافة وزمن، وسرعة الضوء التي تقارب ٣٠٠٠٠٠ متر/ ثانية عَرفها العلماء بعدما قدّروا المسافة وقاسوا وصول أشعة الشمس؛ فحددوا سرعة

الضوء. وقد جعلت سرعة الضوء في الفراغ ثابتًا فيزيائيًا هامًا في العديد من مجالات الفيزياء، وهي تساوي بالدقة ٢٩٩٧٩٢٤٥٨ متر لكل ثانية. وهي نفسها المستخدمة لتعريف وحدة المتر باعتبارها معياراً دوليًا للقياس؛ فمن الشمس إلى الأرض: ٨.٣ دقيقة، ومن أقرب نجم إلى الشمس: ٤.٢ سنة ضوئية، ومن القمر إلى الأرض: ١.٣ ثانية، وهكذا.

لقد أظهرت حادثة الاسراء والمعراج خوارق للسرعة المعهودة حتى أيامنا هذه، وأعلمنا الله تعالى عن طريق نبيه بصفات الناقل لنعلم الوسائل التي مصدرها قوله سبحانه: (**يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**)، فمن اكتشف الوسيلة هان عليه تجاوز السنن الموضوعة؛ فإذا كان هذا حال الخلق فكيف سيكون الكلام عن الخالق الذي لا نعرف له إلا صفات حدثنا عنها أنبياؤه ورسله.

إذن التساؤل عن إمكانية تحرك الإله بسرعة تفوق سرعة الضوء، أمر بدهي لا ينبغي أن يكون من عالم فيزياء متمكن. ولا داعي لأن نظن بأن الإله قادر على تجاوز سرعة الضوء فمن يخلق من عدم لا يحده حدود الزمان والمكان والإمكانية؛ فالمشكلة كامنة عند الناس وليس عند الإله الخالق لأنه يقول للشيء كن فيكون؛ فما حاجته ليكون في أزمة وضيق.

قال صلى الله عليه وسلم: (**يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منْكم ما نقصَ ذلكَ من مُلْكي شيئًا ولو كانوا على أتقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكُم ما زادَ ذلكَ في مُلْكي شيئًا ولو قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلَّ واحدٍ مسألتَهُ ما نقصَ ذلكَ ممَّا عندي شيئًا**)؛ فأي تحدٍ هذا؟

إن التصور بأن تجاوز سرعة الضوء يجعلنا نعتقد بأن الإله سيكون قادراً على الوجود في مكانين في آن واحد تصور قاصر، فكلنا يعلم أن حركة الصور في التلفاز والفيديو صارت مستمرة بعد تحريك الصور الثابتة بسرعة تتجاوز سرعة العين لتراها مستمرة متحركة؛ كخدعة بصرية، بسبب محدودية سرعة العين.

وقد سأل نبي الله موسى عليه السلام أن يرى ربه، فلما تجلى الله تعالى للجبل صار دكًا والتجلي هي مرحلة سابقة بكثير عن مرحلة الظهور والجبل العملاق لم يحتمل نور الله لأنه مخلوق بخصائص فيزيائية محدودة رغم أنه عظيم بالنسبة للإنسان؛ لكنهما لا شيء بالنسبة لمن خلقهما!

وهذا ما عبر عنه جبريل عليه السلام لنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم عندما تركه عند سدرة المنتهى معتذراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لو اقترب لاحترق لشدة النور؛ مع أن جبريل عليه السلام عندما وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كبيراً جداً، يصعب تصوره من قبل إنسان محدود القدرات.

وبالعودة للمنهج التجريبي كأداة إثبات؛ نورد الأمثلة التالية:

استخدم الحواريون من قوم عيسى عليه السلام المنهج التجريبي لإثبات إيمانهم بالله؛ فطلبوا مائدة تتنزل عليهم من السماء؛ ينزلها الله عليهم من السماء فيأكلون منها ليصدقوا، وقد أنزل الله تعالى مائدة عليهم؛ وتوعد من يكفر منهم بعد ذلك بعذاب أليم، وسميت سورة كبيرة في القرآن الكريم باسم المائدة تخليداً لهذه الحادثة.

وذكر الله لنا حادثة رجل استنكر قدرة الله في إعادة الإحياء، فأخضعه الله تعالى للمنهج التجريبي فأماته وحماره مائة عام ثم لما أعاده للحياة؛ سأله: كم لبثت؟ فقال: يوما أو بعض يوم، فصحح الله له ذلك بأنه أماته ١٠٠ عام؛ لقد توقف الزمن عند من أجريت عليه التجربة بسبب انفكاك الروح عن الجسد، ثم أعادهما الله تعالى بقدرته ليُشهده إعادة خلق الحمار عياناً، فأسلم وآمن من فوره.

وبناء عليه؛ لا يصح إطلاق المنهج التجريبي لوحده، وإلا لكان لكل إنسان تجربته الخاصة، وبذلك ليس من فائدة لتمييز الإنسان عن غيره من المخلوقات بعقل مفكر. إن المنهج العقلي الاستنباطي منهج ضروري ليتعرف الإنسان على ما غاب عنه من أشياء سميت بالإيمانية، وهذا أليق بالفكر الإنساني، وأرقى لعقله، فهو قادر على ذلك، ولهذا ميزه الله تعالى عن باقي المخلوقات.

وهناك أمثلة كثيرة تحاكي ما ذكرناه.

جدلية – ٩ :

المصادفة السعيدة

ليس في العلم بشقيه العقلي والتجريبي مصادفات، فإن سلّمنا بأنها مصادفات فذلك سببه حجم العيّنة، فقانون الأعداد الكبيرة يثبت لنا أنه كلما زاد حجم البيانات التي نخضعها للتجربة كلما زادت صحة الحقيقة، فنسبة الوفيات على مستوى العالم دقيقة، ونسبتها تضعف كلما صغر حجم المجتمع المدروس، فهي أكثر تشتتا لو قدرناها على مستوى بلد محدد، وأضعف إذا قصرناها على مدينة معينة، وتستحيل إذا حاولنا التنبؤ بمن سيموت في شارع معين أو من سيموت في وقت ما.

لذلك؛ المصادفة مرتبطة بحجم العينة، وكونها سعيدة أمر نسبي فما هو سعيد لشخص قد يكون تعيس لغيره وما هو سعيد اليوم قد يكون تعيس غدا حتى للشخص ذاته. وإدخال العواطف مع الحقائق العلمية يضعف المنهج التجريبي ويعيبه، لذلك تعاني العينات المدروسة من درجة التحيز؛ لأنها تشوه الدراسات، وتأخذ بها نحو الخطأ الأكيد، والقول بالمصادفة السعيدة يجعلنا نقف على خلاف كبير مع السائلة التي طلبت الموضوعية والحياد في الإجابة، وقد التزمنا بها، بينما عبارة المصادفة السعيدة في هذا المقام تلونٌ وعدم التزام بالعلمية إطلاقًا.

جدلية – ١٠ :

ثمة صورة في ذهني للإله وهو ينقل المعلومات الكمية من كون لآخر للإبقاء على كل شيء في حالة حركة. بل ولحسن الحظ، بوسع هذا الإله القيام بأكثر من مهمة في الوقت ذاته، مع الحفاظ على نسيج الزمان والمكان قيد العمل بشكل طبيعي. ولا يتطلب تصديق ذلك والثقة فيه سوى أن يتحلى المرء بالقليل من الإيمان.

إن الصورة الذهنية المرسومة في هذه الجدلية هي حالة عقلية تحاول الاستنباط جاهدة، ثم تستثني السائلة بقولها: (سوى أن يتحلى المرء بالقليل من الإيمان)؛ لتكون نتيجة في الطريق الصحيح، ولو تحلت بكامل الإيمان لكان ذلك أكثر متانة من الناحية العلمية؛ فمن صفات الله تعالى ومن أسمائه أنه خبير، ولطالما جاءت هذه الصفة ملازمة مرة للعليم كقوله تعالى: (**قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**)، ومرتين ملازمة للطيف، وثلاث مرات ملازمة للحكيم.

وهذه الجدلية مردها سَعة أفق السائلة وبساطة حيلتها، فالحركة بين مكانين أو زمنين صفة لمن هو محدود القدرة قاصر الحيلة، وليست لمن هو قادر عليم خبير حكيم، لذلك جاءت الجدلية بديهية على مستوى تفكير

السائلة المجادلة رغم الصفات العلمية التي ألصقتها باسمها؛ فيبدو أن علومها لم تسعفها، وخبرتها لم تنجدها من الوقوع في هكذا أخطاء. وهذا يذكرنا بالأطفال الصغار الذين يطرحون أسئلة مشابهة ليس من غباء؛ بل من قلة علم، وضعف خبرة، وضحالة حكمة.

جدلية – ١١ :

هل يدير الإله صفائح بحجم المجرات حول نفسها، في وقت ينقل فيه الكواكب بحذق ومهارة من هنا لهناك، وكأنها كرات هائلة الحجم؟

هذه الجدلية تلحق بسابقتها، ونضيف عليها أن من يعجز عن تحريك كرة السلة لتكون في هدفها بشكل مستمر، لا يحق له أن يتجرأ على إله عليم خبير قادر بهكذا استفسار؟

ويجب أن تزيد السائلة علمها بخبر صادق؛ فنبي الله محمد صلى الله عليه أخبرنا أن هذا الكون ليس مجرد مجرات فيها كواكب وحسب بل أكثر من ذلك بكثير، فقال واصفًا كرسي الله تعالى: **(ما السمواتُ السبعُ في الكرسيِّ إلا كحَلْقةٍ مُلقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ تلك الفلاةِ على تلك الحلْقةِ)**، ولو ركز العلماء جهدهم على هذه الحقائق لوفروا كثيرا، وحققوا أكثر؛ ففي مصادر الشريعة الإسلامية العديد من تلك الحقائق الفيزيائية وغيرها.

جدلية – ١٢ :

القول بأننا بصدد نقطة يتقاطع فيها الإيمان الديني بالمنطق التجريبي العلمي؛ دون أن تكون هناك أي إجابة حقيقية يحتاج وقفة مع المنهج العلمي.

المنهج العلمي قسمان: عقلي يعتمد على الاستنباط، وتجريبي يعتمد على ما تقدمه الحواس من تجارب. ولا يصح قصر المنهج العلمي بالمنطق التجريبي ووصفه بالعلمي وإسقاط الجانب العقلي وإلا قارب الإنسان جنس الحيوانات التي تَبرع بالحسيات، فالصقر أحدّ رؤية، والحيتان أشد قوة وبأسا، والحمار أكثر تحملا، والقائمة تطول.

إن عمر الكون الذي ذكرته العالمة هو ١٣.٨ مليار عام بطريقة (Lambda–CDM concordance model) هو ليس مطلقا؛ فمازالت الدراسات والنظريات تقدم إجابات جديدة، وهذا الرقم هو استنتاج

عقلي إثر تتبع دلائل وصل إليها العلماء بالتجربة، فإذا اكتشف غيرهم أدلة جديدة فإن استنتاجات أخرى ستغير الرقم إلى تقديرات ذات تباين كبير، لذلك لا يصلح المنهج التجريبي بعيدا عن المنهج العقلي في هذا الاستنتاج. ومثال ذلك أن بيانات (تلسكوب سبيتزر) الفضائي، أظهرت قياساً جديداً لعمر الكون وهو ١٢.٦ مليار عام، أي نقص بأكثر من مليار سنة من القيمة التي رجحتها قياسات سابقة، وهذا التفاوت لن يقف طالما أن التجربة تتطور، فهل نوقف كل حياتنا على ما تطاله حواسنا ونجعل العقل أسيراً لها؟

جدلية – ١٣ :

في واقع الأمر، ما نتحدث فيه يشكل مسألة يختلف فيها العلم مع الدين. فالعلم يحتاج إثباتات وأدلة، بينما تحتاج المعتقدات الدينية للإيمان بها.

لا يحاول العلماء إثبات وجود إله من عدمه، لأنهم يعلمون أنه لا يمكن تأكيد مثل هذا الوجود عبر أي تجربة علمية مهما كانت. يعود ذلك لأنك ترى أن أي شيء يوجد في كوننا سيتوافق مع وجود إله، ما يعني أن رؤانا حيال هذا الأمر، سواء كانت ذات طابع مادي فيزيائي أو غير ذلك، تعتمد في نهاية المطاف، على الزاوية التي ينظر منها كل منّا له.

لقد دعانا القرآن الكريم إلى استخدام كلا المنهجين لأن اجتماعهما فيه كمال الرؤية.

نضرب مثالا نبي الله إبراهيم عليه السلام، فقد ذكر لنا القرآن الحالات التي مرّ بها وصولا إلى الحقيقة المطلقة. فعندما بدأ التفكير بالملاحظة والمشاهدة راقب النجوم والكواكب واعتد بضابط البحث عن الأكبر ليتخذه إلها، ثم وبالتجربة ذاتها توصل إلى ضعف تلك الأشياء المرشحة أن تكون آلهة. فترك منهجه التجريبي وتحول إلى المنهج العقلي مستنبطًا أن وراء خلق كل تلك الأشياء خالق يستحق التقدير والعبادة، فآمن وأسلم وجهه لله تعالى دون أن يراه أو يسمعه أو يلمسه لأنه أيقن أن حواسه قاصرة تعجز أن تطال ما يفوق قدراتها، بينما العقل قادر على ذلك، وقد أوصله لمعرفة الله تعالى.

ويقودنا ذلك إلى الجدلية التالية:

جدلية – ١٤ :

وجود إله لا يشكل تفسيرا مقبولا للأمر من الوجهة العلمية ... لا يمكن للمرء هنا، دحض فكرة أن هناك إلها، ربما يكون قد خلق هذه الأكوان المتعددة بدورها.

نتابع مع إبراهيم عليه السلام؛ حيث ذكر القرآن الكريم سعيه لمزيد من الطمأنينة؛ بإثبات إيمانه بالتجربة، وبهذا قدّم إبراهيم عليه السلام عُذرا لكل من يميل إلى المنهج التجريبي؛ فطلب من الله أن يريه كيف يخلق؟ فقال الله تعالى له: أولم تؤمن؟ فقال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، فطلب الله تعالى منه أن يأتي بطير فيقطّعه أربعة أجزاء ثم يضع كل جزء منهم على جبل ثم يدعوهم بإذن الله ليعودوا طيراً كما كان، وقد حصل ذلك بالتجربة عيانًا.

لقد كانت تجربة ميدانية ليطمئن بها البشر إلى أن إلههم قادر لا يُعجزه شيء. ولكن هل يستوجب هذا الأمر أن كل من سيؤمن يحتاج تجربة حسية؟ بالطبع لا، بل هذه نماذج يُبنى عليها؛ كما هو الحال مع خرق القوانين في الأمثلة التي ذكرناها سابقًا.

حقًا إنها أجوبة فندت أربعة عشر جدلية قدمتها (أستاذة علوم الفضاء والكواكب في الجامعة المفتوحة في بريطانيا) رسمت صورة جلية، وحقًا إن الإيمان سببه أن الناس خلقت على الفطرة الحنيفية؛ لكن تشوه تلك الفطرة عند البعض مرده حصولهم على معلومات غير مؤكدة، وأخبار مزيفة، اصطنعها مغرضون فضلّوا السبيل وأضلّوا الناس.